

المحاضرة 05: الرواد و التجربة الجديدة

السياب و توظيف الرموز و الأساطير

تمهيد:

لم يبدأ توظيف الأسطورة في الشعر مع السياب و إنما بدأ قبل ذلك مع رواد الشعر الحديث مثل إلياس أبو شبكة و أحمد زكي أبوشادي و علي محمود طه ،و عموماً فإن هذه المرحلة من استخدام في الشعر العربي لم تتجاوز حدود النقل الجاهز لبعض الأساطير الإغريقية و الرومانية و الدينية ،و ظل الرمز الأسطوري مجرد إشارة عقيمة لا تنتج المعنى و لا الصورة و لا حس التكتيف.¹

و قد استفاد من تجربة الأوائل ،و على رأسهم علي محمود طه حيث يقول : "وقعت تحت تأثير المصري علي محمود طه فترة من الزمن و عن طريق هذا الشاعر تعرفت على آفاق جديدة من الشعر حين قرأت ترجماته للشعراء الإنجليز و الفرنسيين "².

توظيف الأساطير و الرموز في الشعر المعاصر :

من أبرز الظواهر الفنية التي تلفت الانتباه في الشعر المعاصر الاكثار من استخدام الرمز والأسطورة أداة للتعبير ،و يعد الاهتمام بالأسطورة أحد المعالم الأدبية الهامة في شعر الحداثة ،و قد كان ذلك نتيجة للوعي العميق بطبيعة الأسطورة ،و هو الوعي الذي استند إلى منجزات العلم مثل علم النفس و الأنثروبولوجيا .

يتمثل السبب الرئيسي في الالتجاء إلى الأسطورة في طابعها الخالد و بقائها على مر الزمان إلى محاولات عدة لبعث المأساة الإغريقية ،و قد يلجأ الشعراء إلى الأسطورة للتعبير عن قيم إنسانية محددة ،أو لأسباب سياسية ،بأن يتخذ الأسطورة أو الشخصية الأسطورية قناعاً يعبر من خلاله عما يريد من أفكار و معتقدات تجنباً للملاحظات السياسية أو الدينية ،فشخصيات الأسطورة ستار يختفي خلفه الكاتب ليقول

¹ -خالد الغريبي ،في قضايا النص الشعري العربي الحديث ،ص 207.

² -محمود العبطة ،بدر شاكر السياب و الحركة الشعرية الجديدة في العراق ،ص 82.

كل ما يريده و هو في مأمن من السجن أو النفي كما أن استعمال الأسطورة يطرح مستويات مختلفة للتأويل.³

و من متابعة الرموز القديمة التي يستخدمها الشعراء المعاصرون يتبين لنا أن معظم العناصر إنما يرتبط بالقديم بشخص أسطوريين (أو دخلوا على مر الزمن عالم الأسطورة)، و أبرز هذه الرموز الأسطورية وأكثرها دورانا هي شخص السندباد و سيزيف و تموز و عشتروت و أيوب و هابيل و قابيل و الخضر و عنتر و عبلة و شهريار و هرقل و التتار و سقراط و غيرها من الشخص الاسطوريين الاغريقين و غير الاغريقين.⁴

الأساطير و الرموز في "أنشودة المطر" للسياب :

يحفل ديوان "أنشودة المطر" بنماذج أسطورية و شخص تراثية إنسانية و أمكنة صارت بحكم تواترها الدرامي رموزا رغم انتمائها إلى محيط الشاعر ،و يعود ميل السياب إلى استخدام الأساطير إلى أسباب عديدة أهمها طبيعة ثقافة الشاعر الشاملة و كذا تأثره بالشاعر الانجليزي ت.س. إليوت ،فضلا عن رغبته في التعبير في الرؤيا و التعبير .

و الرمز ذو ارتباط وثيق بالأسطورة حيث تعد الأسطورة عنصر إبداع وثيق الصلة بما ينتجه الشاعر من رموز و دلالات ،حيث تعد الأسطورة مرجعا أساسيا للرموز الشعرية .و يمكن تقسيم رموز السياب في أنشودة المطر إلى :

أ-رموز أسطورية :و في إطار هذا التحديد تتعدد مستويات الرموز الأسطورية كالآتي :

(1)الرمز التاريخي :و من أمثله جنكيز خان ،و أبو الهول ،و أبو زيد الهلالي ...

(2)الرمز الديني :و من أسمائه المسيح و العازر و يهودا و محمد و قابيل و هابيل و يأجوج و مأجوج...

(3)الرمز النضالي :مثل لوركا و جميلة بو حيرد...

ب-الشخص الأسطورية :

³ -رمضان الصباغ ،في نقد الشعر العربي المعاصر ،ص 344.
⁴ -عز الدين اسماعيل ،الشعر العربي المعاصر قضايا و ظواهره الفنية ،ص 201-202.

و من أمثلتها بعل و سيزيف و عشتار و تموز و سربروس و ميدوزا و أفروديت و فلوست و إيزيس..

و يتبين لنا ان السياب اعتمد أساطير متنوعة المصادر فقد ارتكز على الأسطورة السومرية مازجا إياها بسياقات أسطورية بابلية و كنعانية و فينيقية و يونانية . فلم يقتصر السياب على مصدر واحد من الأساطير ،و إنما حاول إحياء الأسطورة البابلية (العراقية القديمة) من خلال رموز تموز اله الخصب و عشتار قرينته التي ترمز بدورها إلى النماء و الخصب ،كما عمد إلى توظيف الأسطورة الفينيقية من خلال رمز بعل ،و وظف الأسطورة المصرية من خلال إيزيس و أبي الهول ،و اليونانية من خلال إحياء رمز أفروديت آلهة الحب اليونانية و أبولو اله النور و أوديب رمز المأساة البشرية .

ج-الامكنة الرموز :

ومن أمثلتها عراق ،بويب ،جيكور ،بابل ،حراء...

د)الكلمات الرموز :

من جنس مطر ،خليج ،حديد ...

إن المتأمل في قصيدة أنشودة المطر يلحظ كثافة الرمز الأسطوري في طبقات النص ،كما يلاحظ الدور الذي يلعبه الشاعر بواسطة الرمز في ابتداع الصور و خلق الترابط بينها عن طريق حركة الإيقاع .

تنهض قصيدة أنشودة المطر على ثنائية الخصب و الجفاف و منها تتولد ثنائية الموت و الانبعاث :

يقول الشاعر في مطلع القصيدة :

عيناك غابتا نخل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

يرى الشاعر في عيني حبيبته تاريخ كل الأحبة و كل الثورات فتتشكل الصورة ثابتة على جدران الذاكرة ثم سرعان ما يتحرك المشهد و تدب الحركة و تتولد الأفعال صامتة في البدء ثم ناطقة (تورق،ترقص،ترج

،تنبض،...)ثم تتجلى الصور و تتداعى الرموز و يتكثف الجو الأسطوري،الطفولة ،الأم التي تنام نومة اللحد ثم تتحول الأم إلى رمز حين تصوير أرضا ،خليجا ،عراقا:

و في العراق جوع

و ينثر الغلال فيه موسم الحصاد

لتشبع الغريان و الجراد

و تطحن الشوان و الحجر

رحى تدور في الحقول حولها بشر

مطر

مطر

مطر

و كل عام حين يعشب الثرى نجوع

ما مر عام و العراق ليس فيه جوع

و هكذا تكون قصيدة السياب تشكيلا إيحائيا و تصويرا انفعاليا يستمد مقوماته من عناصر الحلم و الصورة و الرمز و الأسطورة ،و بالعودة غلى رمز المطر في الأساطير القديمة نكتشف دلالات الولادة و الانبعاث و الحلم و السفر .

و نخلص إلى القول إن السياب لم يدخل لحظة الحداثة إلا من خلال قدرته على توظيف الأسطورة و الرمز و التي من خلالها استطاع الخروج من نطاق التعبير عن التجربة الذاتية بما هي أوجاع و عذابات إلى التعبير عن القضايا الاجتماعية و السياسية واجدا في الأسطورة بغيته لتجاوز الواقع و الكشف عن الجانب المعتم من الحياة .

